

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

الشيخ آية الله عبد الله الجوادى الاملى (*)

ترجمة: السيد عباس الصافي

ملخص البحث

أنَّ روح الإنسان المجرّدة هي التي تضمن حقيقته، بينما يكون جسده تابعاً لها على طول الخطّ وفي جميع المراحل، ولما كان الموجود المجرّد منزهاً عن صفتي الذكورة والأنوثة، فإنّ أيّاً من الكمالات الوجوديّة للإنسان لا يلزمه وجود أيّ من تلكا الصفّتين، كما أنّ تلك الكمالات لا تمنع كونه مؤنثاً، لذلك يمكن منح الكمال الحقيقي -الذي يمثّل مقام الولاية الشامخ- لأيّ إنسانٍ طاهرٍ تتوفّر فيه الشروط المطلوبة.

المناصب التنفيذيّة في النظام الأحسن يتمّ توزيعها على كلّ من الرجل والمرأة بعد أن يعرف كلّ منهما واجبه ويدرك المسؤوليّة التي أنيطت إليه، ولهذا أُدرج اسم السيدة مريم عليها السلام في لائحة أسماء أولياء الله سبحانه ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا﴾؛ ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾؛ ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾؛ ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾؛ ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾.

(*) أحد مراجع التقليد، وأستاذ بارز في الحوزة العلميّة في مدينة قم الإيرانية، ومن أشهر الباحثين في الفلسفة الإسلاميّة.

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآمل

وما السرّ في ذلك - كما أشرنا - إلا كون الكمال الحقيقي للإنسان منسوباً إلى روحه المجردة المنزهة عن قيود الذكورة والأنوثة والخالصة من أغلال العنصريّة واللغة والزمان والمكان وغير ذلك من الظواهر المادّيّة الأخرى.

وعندما نقول بأنّ فاطمة الزهراء عليها السلام هي سيّدة نساء العالمين وأنّه ما من أحدٍ يستحقّ أن يكون عدلاً لها سوى الإمام عليّ عليه السلام فإنّ ذلك إنّما هو لجمالها الوجودي وليس إستناداً إلى علاقتها الإعتباريّة؛ لأنّ العلاقة العقديّة هي جوهر الكمال الإعتباري لا الحقيقي، والكمال الذاتي والوجودي هو الذي يمكنه أن يكون أساساً لكلّ أنواع الكمالات الحقيقيّة الأخرى، ولذلك لا ينبغي بحث كمال تلك الصديقة الطاهرة عليها السلام في إطار الإضافات العرضيّة لها لوجود آخرين متساوين معها أو متفوّقين عليها من حيث العلاقات العرضيّة، فبنوّتها للنبي صلى الله عليه وآله لا تقتصر عليها وحدها، كما أنّها لم تكن الزوجة الوحيدة لأمر المؤمنين عليه السلام، بل كان للنبي صلى الله عليه وآله عددٌ آخر من البنات وكان عدد منهنّ زوجاتٍ للإمام عليّ عليه السلام أيضاً، وبذلك فهي تتساوى معهنّ في هذا المضمار، فضلاً عن أنّها عليها السلام لم تكن الأمّ الوحيدة للأئمّة المعصومين عليهم السلام ففاطمة بنت أسد لها مكانة من حيث أمومة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فهي عليها السلام وإن كانت أمّاً لأحد عشر إماماً معصوماً عليهم السلام فإنّ السيّدة فاطمة بنت أسد كانت أمّاً لاثني عشر معصوماً لكنّها لم ولن تبلغ مكانة الزهراء عليها السلام الشاخرة بالطّبع؛ ولما كان وجود مثل تلك الإضافات الإعتباريّة يلزمه الإستناد إلى وجودٍ ذاتيٍّ ومستقلٍّ، فإنّ هذا يعني أنّه إذا كان ذلك الوجود كاملاً فإنّ تلك الأوصاف العرضيّة ستصبح أكثر نقاءً وأعلى صفاءً ووضوحاً.

والحاصل، هو أنّ المعرفة الحديّة للإنسان الكامل تتمثّل في معرفة

عَلَى وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

وجوده، أمّا إدراك أوصافه العرضيّة التي تُعتبر معرفةً رسميَّةً أو إسميَّةً في بعض الأحيان فلن يكون له أيّ اعتبارٍ ولا ضرورةً.

وحين قال تعالى بالإرادة التشريعيَّة ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ مخاطب الذين لا يعقلون بالإرادة التكوينيَّة قائلاً: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ والذين لا يؤمنون بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والخلاصة: فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد وهب آل بيت النبوة عليهم السلام الطهارة من كلِّ رجس سواء فيما يطرأ على العقل النظريِّ أم في نيَّة وإرادة العقل العمليِّ بالإرادة التكوينيَّة الحتميَّة .

وبمقتضى الحصر والتقييد فقد خصَّ سبحانه تلك الذوات الطاهرة بذلك التطهير التكوينيِّ ولم يُرده إلاَّ لهم عليهم السلام، وبموجب الإستمراريَّة المذكورة في التعبير بالفعل المضارع (يُرِيدُ) فإنَّ المقصود بذلك هو دفع أيِّ نوعٍ من أنواع الرِّجس وليس رفعه وحسب، ولو أنَّ الرِّجس أو الخطيئة إستطاعا إختراق الحرم الآمن لتلك الذوات الطاهرة ولو للحظةٍ واحدةٍ فقط لتعارض ذلك مع دوام واستمرار الفيض (بدفع الرِّجس) و(التطهير من كلِّ رجسٍ).

وتحسباً من أيِّ هجوم قد تشنه آية خطيئةٍ عليهم والتأكّد من عدم وجود سبيل لدخول أيِّ نوعٍ من أنواع الرِّجس إلى المقام المقدّس لتلك الذوات الإلهية، فقد عُصِموا من القيام بأيِّ فعلٍ غير صحيحٍ وأُشربوا في قلوبهم المتيمّة حبَّ الله سبحانه؛ لأنَّ الآية الشريفة لا تشير إلى أنَّ الله تعالى سيُجنّب آل البيت عليهم السلام عن فعل أيِّ رجس يكون منسجماً - والعياذ بالله - مع رغبتهم الباطنيَّة، بل تصرّح بأنَّه تعالى أراد بذلك إبعاد الرِّجس عنهم.

المدخل

قال مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «لولا أنّ الله تبارك وتعالى خلق أمير المؤمنين عليه السلام لفاطمة عليها السلام ما كان لها كفوٌّ على ظهر الأرض من آدم ومن دونه»^(١).

١. على الرغم من أنّ كلّ موجودٍ يمثّل من جهته مظهراً من مظاهر أسماء الله الحسنى وهو بذلك لا نظير له في المخلوقات لعدم وجود التكرار في نظام الوجود، لكن بما أنّ كثرة المظاهر الجزئية واضحةٌ ووحدها خفيةٌ فإنّ هناك أوجه شبه مشتركة يمكن أن تجعل من تلك المظاهر جميعاً متشابهةً ومتطابقةً. وكلّما كان وجود الشيء محدوداً تعدّدت نظائره، وكلّما كان وجوده واسعاً ومتشعباً قلّ نظراؤه وضُئِلَ أشباهه حتّى يصل إلى مرحلة الوجود البحت حيث لا مثيل يكافئه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٢) ولا كُفُوٌ يماثله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٣).

ويُمثّل وجود النبيّ المبارك (ﷺ) الاسمَ الأعظم في عالم الإمكان فلا أحد يضارعه في ذلك العالم مُطلقاً إذ لا شبيه لمظهر الله الواحد الأحد ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٤) وإذا وُضع الممكن في مقابل وجود النبيّ الطاهر (ﷺ) فسيكون أدنى منه وليس مثيلاً له لوقوعه تحت لواء الحمد وحاجته إلى شفاعته الكبرى، وعندما يدور الحديث حول إتحاد أنوار طاهرةٍ أخرى بنوره (ﷺ) فإنّ ذلك بعيدٌ

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

كُلُّ البُعْدِ عَنِ الشَّبهِ وَالتَّكَافُؤِ لَغِيَابِ الكَثْرَةِ فِي هَذِهِ الحَالَةِ حَيْثُ لَا مَعْنَى لِلکَلَامِ عَنِ المَسَاوَاةِ وَالأَفْضَلِيَّةِ، وَهَكَذَا فَإِنَّهُ لَا يَوْجَدُ مَا يَشْبَهُهُ وَجُودِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَالَمِ الإِمْكَانِ، سِوَاءِ أَكَانَ ذَلِكَ بِاعتْبَارِ انتِفَاءِ المَحْمُولِ كَمَا بَيَّنَّا فِي الفِرْضِ الأوَّلِ أَوْ انتِفَاءِ المَوْضُوعِ كَمَا وَرَدَ فِي الفِرْضِ الثَّانِي.

إِنَّ كُلَّ مَا يَوْجَدُ مِنْ تَشَابِهِ فِي عَالَمِ المَوْجُودَاتِ المَجْرَدَةِ إِنَّمَا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى أَوْصَافٍ خَارِجَةٍ عَنِ ذَاتِهَا، وَكُلُّ تَمَازِيضٍ يُعْتَرِ عَلَيْهِ فِيهَا إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى بَوَاطِنِ ذَوَاتِهَا ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾^(٥)، وَالمَرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ هُوَ هَوِيَّتُهُمُ الوُجُودِيَّةُ (إِلَيْهِ) وَليْسَ مَا هِيَّتُهُمُ المَفْهُومِيَّةُ الَّتِي لَا تَتَسَبَّبُ فِي إِيجَادِ النَّقْصِ فِي المَوْجُودِ الكَامِلِ أَوْ الفِضِيلَةِ فِي المَوْجُودِ النَاقِصِ.

٢. إِنَّ الأَسَاسَ فِي كِمَالِ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ وَجُودُهُ الَّذِي يُوَلِّفُ حَقِيقَتَهُ وَليْسَ بِأَشْيَاءٍ خَارِجَةٍ عَنْهُ، تَمَاماً كَالْمَسَائِلِ المَاهُومِيَّةِ أَوْ المَفْهُومِيَّةِ الَّتِي لَا تَمْتَلِكُ نَصِيباً مِنَ الحَقِيقَةِ الأَصِيلَةِ، بَلْ يَكُونُ حَدُوثُهَا فِي الأَذْهَانِ فَيَسْهَلُ عَلَيْهَا نَيْلُ القُوَى الإِدْرَاكِيَّةِ. وَكَلَّمَا كَانَ وَجُودُ الشَّيْءِ ضَعِيفاً سَهَّلَ إِدْرَاكَهُ الشَّهُودِيَّ، وَكَلَّمَا كَانَ وَجُودُهُ قَوِيّاً صَارَ إِدْرَاكَهُ الحَضُورِيَّ صَعْبَ المَنَالِ حَتَّى يَرْتَقِي إِلَى الوُجُودِ البَحْثِ حَيْثُ لَا يَبْلُغُ إِدْرَاكُ الحَكِيمِ القَنَاصِ الحِصُولِيَّ مَقَامَهُ المُنِيْعَ (لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَمِ)^(٦) وَلَا يَصِلُ الإِدْرَاكُ الحَضُورِيَّ لِلعَارِفِ الغَوَاصِّ أَعْمَاقَ بَحْرِهِ الفِطْيَعِ (وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الفِطْنِ)^(٧)، وَلِذَلِكَ لَا تَوْجُدُ فِي العَرَفَانِ النَظْرِيَّ مَسْأَلَةً يَكُونُ مَوْضُوعُهَا الهُويَّةُ المَطْلُوقَةُ أَوْ مَقَامُ اللَاتَعَيَّنِ (وَهُوَ مَقَامُ الذَاتِ)^(٨) رَغْمَ أَنَّ إِدْرَاكَ مَظَاهِرِ ذَلِكَ الوُجُودِ البَحْثِ لَيْسَ مَيَسُوراً لِلعَقْلِ وَحَسَبِ، بَلْ وَليْسَ الحَسَّ مَحْرُوماً مِنْ نَيْلِهِ كَذَلِكَ؛ لَكِنْ يَبْقَى إِدْرَاكُ الذَاتِ المَقْدَسَةِ لِذَلِكَ الوُجُودِ الصَّرْفِ غَيْرِ مَيَسُورٍ لِلحَسِّ وَلَا مَقْدُورٍ لِلعَقْلِ (وَالعَقْلُ كَالحَسِّ قَاصِرٌ

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الإمليّة

عن الوصول إلى سُرادق جلاله^(٩).

نعم، إن أصل العلم بالذات المقدّسة وليس كنهها هو أمرٌ بديهيٌّ لكلِّ موجودٍ مُدركٍ لأنّه وقبل إدراكه لذاته ولوازمها الذاتية، بل وحتّى قبل علمه بذاته، يدرك ذات ذلك الوجود البحت ولهذا اعتبر الوحي أصل العلم بالذات المقدّسة أمراً فطريّاً ولم يتطرّق إليه (... وأما الذات فستطلع أنّ القرآن يراه غنياً عن البيان)^(١٠).

وفي عالم الإمكان تكون المعرفة الحصوليّة أو الحضوريّة لأيّ موجودٍ أصعب من معرفة الوجود المبارك لخاتم الأنبياء صلّى اللّهُ عليه وآله والأنوار الطاهرة لآل البيت عليّهم السلام: (... الإمام واحد دهره لا يُدانيه أحدٌ ولا يُعادلُه عالمٌ ولا يُوجد منه بدلٌ ولا له مثلٌ ولا نظير... وهو بحيث النجم من يد المتناولين ووصف الواصفين؛ فأين الاختيار من هذا؟! وأين العقول عن هذا...؟!)^(١١).

٣. ورغم أنّ كمال أيّ شيءٍ مرهونٌ بوجود ذلك الشيء وليس بأمره الماهويّة أو المفهوميّة، إلّا أنّ معيار الكمال في كلّ شيءٍ هو وجوده الأوّلي والذاتي وليس وجوده الماديّ الثانويّ العرضيّ لأنّ حقيقة الشيء هي التي تُحدّد ملامح صورته النوعيّة التي تسرد قصّة وجوده وليس أوصافه الخارجيّة التي لا تترجم سوى كيفيّة إرتباطه بالعالم الخارج عن حقيقته والكمال الذاتي للإنسان - وهو وجوده المدرك والفعّال - بكيفيّة التفكير الصحيح الذي يقتبس نوره من المبادئ العليا، بالإضافة إلى شكل النية والإرادة الخاصة بتدبير البدن وعالم الطبيعة الذي يشكّل عقله النظريّ والعمليّ.

ومن الناحية العلميّة فإنّ حقيقة الإنسان ليست سوى ذلك التفكير الأصيل، أمّا من الناحية العمليّة فهي النية الخالصة والنادرة التي ستُحشّر في



عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

الآخرة هيئة ذلك العلم الكامل وصورة تلك النية الخالصة، وهناك لن يكون للعلاقات والروابط العرضية أي وجود في عالم حقيقة الإنسان (قيمة كل امرئ ما يحسنه)^(١٢)، وكما أنه لم تكن لتلك العلاقات والروابط العرضية أي تأثير في حقيقة الإنسان الأولى فإنه لن يكون لها أي دور كذلك في ظهور حقيقته في آخر المطاف ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾^(١٣).

ولأن روح الإنسان المجردة هي التي تضمن حقيقته، بينما يكون جسده تابعاً لها على طول الخط وفي جميع المراحل، ولما كان الموجود المجرد منزهاً عن صفتي الذكورة والأنوثة، فإن أيّاً من الكمالات الوجودية للإنسان لا يلزمه وجود أي من تلكا الصفتين كما أن تلك الكمالات لا تمنع كونه مؤنثاً، لذلك يمكن منح الكمال الحقيقي - الذي يمثل مقام الولاية الشامخ - لأي إنسان طاهر تتوفر فيه الشروط المطلوبة.

نعم، فالمناصب التنفيذية في النظام الأحسن يتم توزيعها على كل من الرجل والمرأة بعد أن يعرف كل منهما واجبه ويدرك المسؤولية التي أنيطت إليه، ولهذا أدرج اسم السيدة مريم عليها السلام في لائحة أسماء أولياء الله سبحانه ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾؛ ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾؛ ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾؛ ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾؛ ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾^(١٤)، وما السر في ذلك - كما أشرنا - إلا كون الكمال الحقيقي للإنسان منسوباً إلى روحه المجردة المنزهة عن قيود الذكورة والأنوثة والخالصة من أغلال العنصرية واللغة والزمان والمكان وغير ذلك من الظواهر المادية الأخرى.

٤. عندما نقول بأن فاطمة الزهراء عليها السلام هي سيّدة نساء العالمين وأنه ما من

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآملية

أحدٍ يستحقّ أن يكون عدلاً لها سوى الإمام عليّ عليه السلام فإنّ ذلك إنّما هو لكمالها الوجودي وليس إستناداً إلى علاقتها الإعتبارية لأنّ العلاقة العقديّة هي جوهر الكمال الإعتباري لا الحقيقيّ والكمال الذاتي والوجودي هو الذي يمكنه أن يكون أساساً لكلّ أنواع الكمالات الحقيقيّة الأخرى، ولذلك لا ينبغي بحث كمال تلك الصديقة الطاهرة عليها في إطار الإضافات العرضيّة لها لوجود آخرين متساوين معها أو متفوّقين عليها من حيث العلاقات العرضيّة، فبنوّتها للنبيّ صلى الله عليه وآله لا تقتصر عليها وحدها، كما أنّها لم تكن الزوجة الوحيدة لأمر المؤمنين عليه السلام، بل كان للنبيّ صلى الله عليه وآله عدداً آخر من البنات وكان عددٌ منهنّ زوجات للإمام عليّ عليه السلام أيضاً، وبذلك فهي تتساوى معهنّ في هذا المضمار، فضلاً عن أنّها عليه السلام لم تكن الأمّ الوحيدة للأئمّة المعصومين عليه السلام ففاطمة بنت أسد تبرزها مكانةً من حيث أمومة الأئمّة المعصومين عليه السلام، فهي عليه السلام وإن كانت أمّاً لأحد عشر إماماً معصوماً عليه السلام فإنّ السيدة فاطمة بنت أسد كانت أمّاً لاثني عشر معصوماً لكنّها لم ولن تبلغ مكانة الزهراء عليه السلام الشاخحة بالطّبع؛ ولما كان وجود مثل تلك الإضافات الإعتبارية يلزمه الإستناد إلى وجود ذاتيٍّ ومستقلٍّ، فإنّ هذا يعني أنّه إذا كان ذلك الوجود كاملاً فإنّ تلك الأوصاف العرضيّة ستصبح أكثر نقاءً وأعلى صفاءً ووضوحاً.

والحاصل هو أنّ المعرفة الحدّية للإنسان الكامل تتمثّل في معرفة وجوده، أمّا إدراك أوصافه العرضيّة التي تُعتبر معرفةً رسميّةً أو إسميّةً في بعض الأحيان فلن يكون له أيّ إعتبارٍ ولا ضرورةً.

٥. لا شكّ في أنّ أفضل وسيلةٍ للتعرفّ على شخصيّة مولانا فاطمة الزهراء عليه السلام هي تحليل كلمة (الثقلين) - أي القرآن الكريم وسنة



عَلِيٌّ وَفَاطِمَةٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

المعصومين عليه السلام - وليس من ترجمانٍ يمكنه بيان وجود تلك الذات المقدسة عليه السلام أفضل من هذين الثقلين العظيمين.

آية التطهير

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾^(١٥).

إن المقصود بـ(الإرادة) المنسوبة إلى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة هي الإرادة التكوينية التي وعد بها عز وجل في قوله: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١٦) وهو لا يخلف الميعاد، وأما ميزة الإرادة على المراد فتتمثل في اختلاف الإيجاد والوجود اللذين يمتازان عن بعضهما البعض في النسبة والإعتبار، وأما سرّ الضرورة في تحقق المراد في الإرادة التكوينية فيكمن في عدم وجود التزاحم أو التصادم في النشأة الملكوتية للأشياء، ولذلك وبمجرد قول كلمة ﴿ كُنْ ﴾ يتحقق المراد ﴿ فَيَكُونُ ﴾ ودخول حرف (الفاء) على كلمة ﴿ فَيَكُونُ ﴾ هو لبيان الترتيب الوجودي لا الانفصال الزماني أو ما شابهه.

والسبب في تكوينية الإرادة في الآية الشريفة المذكورة هو أن إرادة الله تعالى متعلقةً بفعله لا بفعل الغير ولا بسبب شيءٍ آخر لأن إرادته سبحانه بطهارة البشر عن طريق الإمتثال للتكاليف هي إرادةٌ تشريعيةٌ لا تتعارض مع عدم تنفيذ المراد لأن معنى الإرادة التشريعية هو أن الله سبحانه وتعالى شاء أن يضع قانوناً يتمثل في الحقيقة بـ(إرادة التشريع) وهي إرادةٌ تكوينيةٌ في نفس الوقت، لذلك فإن القانون الذي يكون المراد سوف يُشرع حتماً ولا سبيل إلى التخلف عنه لا في التشريع ولا في فرض الإرادة، بمعنى أن القانون هو أمرٌ

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآمل

ديني مفروض بمجرد إرادة التقنين.

والمقصود بتشريع القانون ووضع هو وجود بون شاسع بين إرادة التقنين وبين تحقق ذلك الشيء في الخارج - إرادة الإنسان المختار - فإما أن يطبقه بحسن اختياره أو يتركه بسوء اختياره، خلافاً للإرادة التكوينية التي تتعلق بشكل مباشر بالمراد الخارجي الذي يمثل عين فعل الله سبحانه ولا يمكن التخلف عنه؛ وعليه يتضح الفرق بين الآية الشريفة المذكورة في أعلاه وبين قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُظْهِرَكُمْ لِيَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١٧) إذ أشار الله عز وجل في هذه الآية إلى الأقسام الثلاثة للطهارة (وهي الوضوء والغسل والتميم) لكي يقوم الإنسان المختار بإرادته بتنفيذ وتطبيق التكاليف المذكورة سعياً إلى التطهر وأملاً في التزكية. ورغم أن المكلف قد يعلوه العفر والتراب خلال التيمم إلا أن جائزة ذلك ستكون بلا شك تطهره من كل غرور وأناية وتخلصه من هوى وغيرية، مثلما أن إعطاء الزكاة في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(١٨) يعد سبباً لتطهر النفس ومدعاة لتزكيتها مع أن الزكاة هي مجرد عمل عبادي اختياري.

إذن، فعندما ينسب الله تعالى إرادة تطهير البشر وتزكيتهم إلى ذاته المقدسة عن طريق تكليفهم بذلك فإن هذه هي إرادة تشريعية وليست إرادة تكوينية، لذا لا يوجد أي تعارض في ذلك لا مع التخلف عن المراد ولا مع الإرادة التكوينية لله سبحانه بعدم تطهير قلوب الكافرين، فضلاً عن عدم وجود التعارض أيضاً مع جعل الرجس على الفاسدين المارقين لأن الإرادة التشريعية بالطهارة ليست نقيضة عدم الإرادة التكوينية بالطهارة ولا هي

عَلَىٰ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

نقيضة هذه الأخيرة بجعل الرّجس، ففي نفس الوقت الذي قال فيه تعالى للمكلفين: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالإرادة التشريعيّة، قال كذلك بالإرادة التكوينيّة مخاطباً المستنكفين عن تنفيذ أوامره والمسارعين إلى الكفر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾^(١٩)، وحين قال تعالى بالإرادة التشريعيّة: ﴿وَيُذْهِبْ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾^(٢٠) خاطب الذين لا يعقلون بالإرادة التكوينيّة قائلاً: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢١) والذين لا يؤمنون بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢٢).

والخلاصة فإنّ الله سبحانه وتعالى قد وهب آل بيت النبوة ﷺ الطهارة من كلّ رجسٍ سواء فيما يطرأ على العقل النظريّ أو في نيّة وإرادة العقل العمليّ بالإرادة التكوينيّة الحتمية. وبمقتضى الحصر والتقييد فقد خصّ سبحانه تلك الذوات الطاهرة بذلك التطهير التكوينيّ ولم يُرده إلاّ لهم ﷺ، وبموجب الإستمراريّة المذكورة في التعبير بالفعل المضارع ﴿يُرِيدُ﴾ فإنّ المقصود بذلك هو دفع أيّ نوعٍ من أنواع الرّجس وليس رفعه وحسب، ولو أنّ الرّجس أو الخطيئة إستطاعا إختراق الحرم الآمن لتلك الذوات الطاهرة ولو للحظةٍ واحدةٍ فقط لتعارض ذلك مع دوام وإستمرار الفيض (بدفع الرّجس) و(التطهير من كلّ رجس).

وتحسباً من أيّ هجوم قد تشنه آية خطيئةٍ عليهم والتأكد من عدم وجود سبيلٍ لدخول أيّ نوعٍ من أنواع الرّجس إلى المقام المقدّس لتلك الذوات الإلهيّة، فقد عُصِموا من القيام بأيّ فعلٍ غير صحيحٍ وأُشربوا في قلوبهم المتيمّة حبّ الله سبحانه لأنّ الآية الشريفة لا تشير إلى أنّ الله تعالى سيُجنّب آل البيت ﷺ عن فعل أيّ رجس يكون منسجماً - والعياذ بالله - مع رغبتهم

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآمل

الباطنية، بل تصرّح بأنّه تعالى أراد بذلك إبعاد الرّجس عنهم عليه السلام ومنعه من الوصول إليهم، وهذا يذكّرنا بالتعبير الذي قيل حول العبد المخلص يوسف الصّديق عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢٣) أي: إنّّه تعالى تعهّد بإبعاد السوء والرّجس عن عبده المخلص يوسف عليه السلام وليس إبعاده هو عن السوء والرّجس، وهكذا فإنّه لا سبيل أمام الخطيئة من الدخول إلى قلّة جبل الصّدق والإخلاص حيث يقطن عباد الله الصّادقين والمخلصين. ويستفاد من قوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ صرّف الرّجس وإبعاده عن آل البيت عليه السلام وليس صرفهم وإبعادهم عنه، وبالتالي فلا مجال لخيلات السوء وهي - كما نعلم - نوعٌ من أنواع الرّجس النفسانيّ في إختراق عقولهم الطاهرة وأذهانهم الشريفة المطهّرة.

لكنّه سبحانه وتعالى لم يخبم الموضوع بذهاب الرّجس بل أعقبه بمسألة التطهير المؤكّد ممّا يشير إلى أنّ الأمر لا يقتصر على عدم السماح لأيّ نوع من أنواع الرّجس بالدخول إلى حرم آل بيت العصمة والطهارة عليه السلام بل وكذلك لا نجد له أيّ أثرٍ على الإطلاق على طوّد إخلاصهم لبعده عن ساحتهم المقدّسة بحيث لا ترى له أيّ غبارٍ ولا تشمّ له أيّة رائحةٍ ولا تلمح له طيف وهمٍ أو شبحاً كذلك في علاهم المقدّس.

هذا وقد وصف الإمام الرازي السرّ في ذكر عمليّة ذهاب الرّجس عن تلك الذوات الطاهرة إلى جانب تطهيرهم وتنزيتهم في كلامٍ بديعٍ وشرحٍ رائعٍ قائلاً: «فيه لطيفةٌ وهي أنّ الرّجس قد يزول عيناً ولا يُطهّر المحلّ، فقوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي يُزيل عنكم الذنوب ويُطهّركم، أي يلبسكم خلع الكرامة»^(٢٤)، ويعني ذلك أنّه تعالى لم يكتف بضمّان إزالة

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

الصفات السلبية عنهم عليه السلام بذهاب الرّجس بل وضمن لهم أيضاً لباس الكرامة التي تُعدّ محوراً لجميع الصفات الثبوتية من خلال التطهير الذي هو أمرٌ وجودِيٌّ، فأثار الطهارة تُسكّب وتُصبّ من تلك الذوات على الآخرين دون أن يدخل إليهم أي أثرٍ من الرّجس أو يقتحم عصمتهم شيءٌ من السّوء؛ مثلهم في ذلك كمثل خواصّ المؤمنين الموعودين برحمة ربهم الخاصّة، وهم محفوظون من جهنّم ومُبعدون عن نيرانها، بل ولا يسمعون حسيسها، ولا تصلهم آثارها، وعندما تُهرع الموجودات السماوية والأرضية في يوم الفرع الأكبر وتُصعق وتُذهل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهُ دَاخِرِينَ﴾^(٢٥) يكون هؤلاء عليه السلام في مأمن من الخوف وصون من الفرع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ...﴾^(٢٦) «فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ حَيْرَانَ اللَّهِ فِي دَارِهِ رَافِقَ بِهِمْ رُسُلَهُ وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتُهُ وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَدًا»^(٢٧).

ولما كان إدراك معارف القرآن الكريم متعذراً سوى بطهارة الضمير: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٢٨) وكان من طهرهم الله تعالى على إتصالٍ مستمرٍّ مع الكتاب المكنون الذي يحيط بالقرآن، فإن آل البيت عليه السلام محيطون وعالمون بكلّ مدارج القرآن الكريم ومعارجه؛ وما درجات الجنة ومنازلها إلا بعدد آي القرآن الكريم (فإنّ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، يُقَالُ لَهُ: إِقْرَأْ وَارْقُ، فَيَقْرَأُ، ثُمَّ يَرْقَى)^(٢٩).

هذا، ولا ريب في أنّ جنة اللقاء ليست من نصيب أحدٍ خلا الذين أدركوا حقيقة القرآن الكريم السامية والمحافظة في أم الكتاب لدى الله

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآملية

سبحانه بطهارة أرواحهم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ * وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٣٠﴾، فما دام الإنسان مُعجَباً بوجوده ووصفه كالعلم والمعرفة فهيهات أن يصل إلى الطهارة الأصيلية: «... فَمَنْ رُزِقَ الطهارة حتى عن الإخلاص فقد مُنح الإخلاص...» ﴿٣١﴾، وبالتالي فهو كَمَن لم يشعر بكنهه القرآن ولن يبلغ من جنّة اللقَاء شيئاً. وبما أن التطهير في الآية الكريمة هو تطهيرٌ مطلقٌ لذا لم يتمّ التطرّق إلى الرّجز والرّجس بشكلٍ خاصّ، فإنّ كلّ ما يُمثّل سيئةً أو رجساً يُعدّ مطروداً من قدسيّة آل البيت ﷺ ومُبلساً عنهم - وإن كانت (حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُقْرَبِينَ) - بما في ذلك إختراق السوء وجودهم ووصفهم وما إلى ذلك، وهذا بالضبط ما نسّميه بالطهارة الفدّة والتطهير النادر حيث قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق ﷺ في ذيل تعليقه على الآية الشريفة ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ﴿٣٢﴾ بأنّ المقصود هي الطهارة ممّا سوى الله سبحانه: «... يُطَهِّرُهُمْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ إِذْ لَا طَاهِرَ مَنْ تَدَنَسَ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَكْوَانِ إِلَّا اللَّهُ» ﴿٣٣﴾، روه عن جعفر بن محمّد.

وقد شاعَ بين المفسّرين المسلمين من أمثال الإمام الرازي وغيره أنّه قال في ذيل الآية الشريفة المذكورة: «... فإذا وصل إلى ذلك المقام وشرب من ذلك الشراب انضمت تلك الأشربة المتقدمة، بل فנית، لأنّ نور ما سوى الله تعالى يضمحل في مقابل نور جلال الله وكبريائه وعظمته وذلك هو آخر سير الصّديقين ومُنتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال؛ فلهذا السبب ختم الله تعالى ذكر ثواب الأبرار على قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾» ﴿٣٤﴾.

وورد في تفسير أبي السّعود قوله: «هو نوعٌ آخر... كما يرشد إليه إسناد (سقيه) إلى ربّ العالمين ووصفه بالطُّهر، فإنّه يطهّر شاربه عن دنس الميل إلى

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

الملاذ الحسّية والركون إلى ما سوى الحق، فيتجرّد لمطالعة جماله مُلتدّاً ببقائه باقياً ببقائه وهي الغاية القاصية من منازل الصديقين ولذلك ختم بها مقالة ثواب الأبرار»^(٣٥)؛ والمقصود بلفظة الأبرار في هذا البحث ليس ما يقابل المقرّبين لأنّ تلك اللفظة تشملهم هم أيضاً.

نعم، سيتجلّى التطهير من شهود غير الحقّ في جنّة اللقاء بهيئة الشراب الطهور، فمَن كان مطهّراً في هذه الدنيا سيكون هو الساقى في العُقبى وهو الشارب من كأس الطهارة في العالم الآخر، وما تلك سوى الزهراء عليها السلام عدل أمير المؤمنين عليه السلام في كلّ المراحل، من البداية إلى النهاية، وما تلك الكمالات المذكورة سوى الكمالات الأولى للإنسان الكامل التي تمثّل العامل المقوم والصورة النوعية له وليس الكمال الثانوي الذي هو بمنزلة العرض والوجود الوصفيّ.

آية المباهلة

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٣٦).

رغم أنّ المباهلة كانت فضيلةً جديرةً بالنظر والتأمل باعتبارها إعجازاً للنبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وكرامةً لأولياء الله، ومع أنّ حضور آل بيت النبوة عليهم السلام بذواتهم الطاهرة شخصياً في المباهلة مع وفد أحبار نجران يُعدّ منقبةً ما بعدها منقبةً، لكنّ المُستفاد من الآية الشريفة هو أنّ آل البيت عليهم السلام يُمثّلون أبرز مظاهر جلال الله سبحانه وجماله؛ فأما وصفهم بمظهر الجلال فلنسبة جعل

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآملية

وإيجاد اللعنة - اللذين هما فعلٌ من أفعال جلالية الحقّ تعالى - إليهم، تماماً كما يُنسب الجلال والغضب إلى بعض الملائكة في بعض الأحيان. فمعنى جعل اللعنة على الشخص والجماعة هو هلاك أنفسهم وإفناء وجودهم أو سلب عافيتهم أو وصفٌ من أوصافهم الوجودية (ليس التامة أو ليس الناقصة) كما أنّ جعل الرّحمة على الشخص أو الجماعة معناه إفاضة نعمة الوجود أو نعمة وصف من أوصافهم الوجودية (كان التامة أو كان الناقصة)، وتكون واسطة الفيض أو الغضب تلك أحياناً بشكل دعاءٍ أو طلبٍ لأيّ سببٍ كان يستجيب له الله سبحانه بمقتضى الصلاح الذي يتضمّنه ذلك الطلب، كدعاء سيّدنا نوح عليه السلام عندما قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٣٧) والأدعية الأخرى التي يستخدمها أولياء الله والتي تتسبب في نزول الرّحمة أو حلول الغضب.

وفي بعض الأحيان تكون النفس القدسية للداعي الذي يُمثّل مظهراً من مظاهر الجلال والجمال، واسطةً لذلك الدعاء فكما أنه يمكن إحياء شخصٍ أو إماتة آخر بدعاءٍ وليٍّ من أولياء الله فليس من المتعذّر أيضاً إحياء الشخص أو إماتته بوساطة قداسة تلك النفس كإحياء الموتى بقداسة سيّدنا المسيح عليه السلام وطهارته^(٣٨). ولما كانت جميع الشؤون المذكورة هي من الأسماء الفعلية لله سبحانه لا الأسماء الذاتية للحقّ تعالى، وبما أنّ جميع التصرفات المشار إليها هي بإذن الله الواحد القهار بحيث يمكن سلب إسناد الإعجاز أو الكرامة من أولياء الله في نفس الوقت الذي يمكن فيه إسنادهما إليهم، فإنّ المبدأ السائد في كلّ نظام التوحيد الأفعاليّ هو: «وما فعلت إذ فعلت ولكن الله فعل» فليس هناك أيّ محذور عقليّ وبالقرينة اللبية المتصلة أو المنفصلة من نسبة أو إسناد

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِزْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

جعل لعنة الله على الكاذبين إلى آل البيت عليهم السلام أي (إسناداً إلى غير ما هو له)، ولأنّ البحث هو في الكمالات الوجودية فإنّ موضوع الشرور والمعاصي والنقائص وما شابهها خارج عن هذا البحث بمقتضى قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾^(٣٩) وقوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾^(٤٠).

ورغم أنّ الدعاء بنزول العذاب وحلول الغضب وإستجابته يُمثّل بحدّ ذاته كرامةً موهوبةً إلى أصحاب النفوس القدسيّة وأولي الدعوات المستجابة، إلّا أنّ الأفضل من ذلك هي الكرامة التي تجعل الإنسان نفسه شأنًا من شؤون الجلالية للحقّ تعالى فيحلّ الغضب على قوم ما بإذن الله وهو ما يدلّ عليه ظاهر الآية ﴿ثُمَّ نَبْتَهَلْ فَتَجْعَلْ...﴾^(٤١) في جزئها الأخير. وأمّا ما قيل من أنّ هذا الإبتهال وجعل اللعنة والعذاب إنّما يشمل كلتا الطائفتين المشاركتين في عملية المباهلة ولا يختصّ بآل بيت النبوة عليهم السلام وحدهم، فلا بدّ هنا من التركيز على نقطة مهمّة وهي أنّ التادّب والتواضع في التعبير والحوار يقتضيان أحياناً التحدّث مثلاً بهذه الصيغة: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤٢) وفي هذه الآية التي نحن بصددّها يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله قائلاً: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ...﴾^(٤٣) وهذا بيانٌ صريحٌ حول عجز أولئك القوم عن جعل اللعنة على أيّ شخصٍ أو جماعةٍ، فما بالك في قدرتهم على التأثير على الرسول صلّى الله عليه وآله أو على آل بيته الكرام عليهم السلام بإبتهالهم أو دعوتهم أو لعنهم؟ إذن فالفتنة الوحيدة التي تُنسب إليها الإبتهال وجعل لعنة الله سبحانه وهو من قبيل (إسناد إلى غير ما هو له) هم آل بيت النبوة عليهم السلام، وكفى بنا عزّاً أن نكون أمّة

لهؤلاء الأئمة السادة.

هذا ما يتعلّق بمظهر الجلال وشأن التعذيب، وأمّا النقطة الأخرى التي ذكرتها الآية الشريفة فهي أنّ آل البيت عليهم السلام هم مظهر الحقّ تعالى وشأن هدايته، وهي تبين أنّ الصدق والكذب الخبريّين هما من الأوصاف المتقابلة للخبر وأنّ ما كان خبراً إمّا أن يكون صادقاً أو كاذباً وإذا لم يكن خبراً وكان مجرد جملة أو عبارة مفردة فعندئذ لا يمكن نسبة الصدق أو الكذب إليه.

ثمّ إنّ الصادق أو الكاذب هما صفتان من صفات المخبر فإذا لم يكن الشخص مخبراً أصلاً فهو ليس بصادق ولا بكاذب.

وعليه فإنّ كون الشخص أو الجماعة صادقة أو كاذبة هو فرع على إدعائها أو دعوتها وإخبارها، وبما أنّ الآية الشريفة قد ذكرت صفة الكذب بصيغة الجمع **﴿الكاذبين﴾** فإنّ ذلك يعني وجود مدّعين من كلا الطرفين، فإذا لم يكن هؤلاء صادقين فستشملهم اللعنة الفعلية للحقّ تعالى وإذا كان من آل البيت عليهم السلام من يدّعي الحقّ ويدعو إليه وخصوصاً النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وكان البقية مجرد متفرّجين لتلك المباهلة وشهوداً على ما يجري هناك فإنّهم ليسوا بكاذبين ولا صادقين لأنّ صدق المخبر وكذبه فرع على الإخبار ولكانت كلمة **﴿الكاذبين﴾** عارية من أية مصداقية؛ فلمّا كان المقصود بـ **﴿الكاذبين﴾** هم أولئك الأشخاص المدعّوين للمباهلة وليس أيّ كاذبٍ خارجها لزم أن يكون أحد طرفي المحاوراة والإبتهال مدّعيّاً للحقّ لتصدق على الآخر صفة الكذاب، وعليه فإنّ مسألة دعوة الحقّ والدعوة إليه قائمة في آل البيت عليهم السلام وليست مقتصرة على النبيّ صلى الله عليه وآله وحده ^(٤٤).

صحيح أنّ موضوع الرسالة والنبوة وتلقّي الوحي مقتصرٌ وخاصٌّ

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

بشخص خاتم النبيين ﷺ، لكنّ الولاية التي تُعتبر إدعاءً بالحقّ ودعوةً إلى الحقّ وشأناً من شؤونها، موجودةٌ في سائر أشخاص آل بيت الرسول ﷺ ومثال ذلك ما ورد في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام التي تُسمّى بـ(القاصعة) حيث قال: «وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ آيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ؛ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ وَلَكِنَّكَ لَوْزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ»^(٤٥)، وتشير تلك العبارات إلى أنّ هناك حقائق ستخرج من آل البيت عليهم السلام من منظار الولاية (وليس النبوة) فمنها ما شهدوه مع النبي ﷺ ولذلك فهم شركاء معه في الإدعاء والدعوة إليه، ورغم أنّ دعوة الحقّ والدعوة إلى الحقيقة وهداية البشر هي من شؤون الله تعالى الجمالية إلا أنّ ذلك ظاهرٌ ظهوراً تاماً في أفراد آل البيت عليهم السلام وهؤلاء هم مظهر (الهادي) و(الداعي) وبقية الأسماء الجمالية للحقّ تعالى، وكفى بنا فخراً أن يكون هؤلاء أوليائنا وأئمّتنا.

نعم، لقد كانت فاطمة الزهراء عليها السلام عدلاً لأمر المؤمنين عليه السلام في مراحل الجمال ومراتب الجلال تلك، وهذا النوع من الكمالات - كما أشرنا سابقاً - هو كمالٌ نفسيٌّ وليس كمالاً نسبياً أو عرضياً، وهو بمثابة المقوم لحقيقة الإنسان وليس كمالاً ثانوياً أو وجوداً نعتياً.

ملاحظة: من المزايا والسجايا التي يتّصف بها أمير المؤمنين علي عليه السلام هو وصفه بأنّه نفس النبي ﷺ.

تذكير: إنّ أيّ كمالٍ عمليٍّ أو علميٍّ لآل البيت عليهم السلام مُسجّلٌ بإسمهم ولا يُعرف إلاّ بهم مثل وصفهم بـ(عدل القرآن الكريم) في حديث الثقلين وتشبيهم بسفينة نوح عليه السلام التي كانت كلّ حركاتها وسكناتها بإسم الله وليس بالعلل أو

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآملية

العوامل الطبيعية كقول الرسول ﷺ: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح، من ركبها نجي ومن تخلف عنها هلك» ولا تستثنى فاطمة الزهراء عليها السلام التي هي عدل أمير المؤمنين عليه السلام من تلك الدرجات العالية والمقامات الشاخصة.

والحقيقة أنّ فؤاد النبي الأعظم ﷺ لم يكن مجرد مُضيفٍ للملائكة ومهبطهم أو نشأة المثل والنزول فقط: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾^(٤٦) بل وكان ضيف الحق عند لقائه في نشأة العقل والعروج: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٤٧) وغارقاً في لجج بحر محبة الله تعالى ومتيمّاً بجلاله، فهو لم يعشق سوى مظاهر جلال الله وجماله سبحانه، ولما كان آل بيت الرسول ﷺ يُمثّلون مظاهر أسماء الله الحسنى فإنهم لا ريب أحباب رسوله ﷺ كذلك، ولكن عندما سأل أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله ﷺ: «أينا أحب إليك؟ أنا أو هي؟» قال ﷺ: «هي أحب إليّ وأنت أعزُّ عليّ»^(٤٨) لأنّ كلا منهما يُمثّل مصداق الكوثر الذي وهبه الله سبحانه للنبي الأكرم ﷺ، ولما كان الكوثر هو عطاء الله الخاص فهو لا شك الأعز والأحبّ عنده.

قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني، يسرني ما يسرها ويغضبني ما يغضبها»، فإذا لم يكن الإنسان مُطهراً من الهوى ومعصوماً من الرّجس فلن يكون غضبه ورضاه معياراً للباطل وميزاناً للحق، بل وقد لا يكون رضاه من رضا الله سبحانه في مقام الفعل وغضبه من غضب الله تعالى في موطن الفعل، وإذا كان الإنسان الكامل طاهراً من وساوس الأهواء ومصوناً من سهام الرّجس فإن رضاه وغضبه سيكونان معياراً لتعيين الحق وتمييزه عن الباطل لأنّه يُمثّل مظهر اسم الراضي والغضبان للحق تعالى ومقياساً لأعمال الآخرين وأوصافهم.



عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

وإذا كان الرسول الأكرم ﷺ هو ميزان أعمال الأمة وكان رضاه من رضا الله وغضبه من غضبه، وكان رضا الزهراء ﷺ وغضبها يثيران رضا النبي ﷺ وغضبه في أيِّ مقامٍ كانت فيه، عندئذ يتضح أن العقل العملي للزهراء ﷺ يشبه عقلها النظري من حيث عصمتها من الباطل وكونها عدل أمير المؤمنين ﷺ باعتباره ميزان أعمال الأمة ومظهر رضا الله سبحانه وسخطه، بموجب قول النبي ﷺ: «عَلِيٌّ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَهُ وَعَلَى لِسَانِهِ، وَالْحَقُّ يَدُورُ حَيْثُ دَارَ عَلِيٌّ»^(٤٩)، وحين يصبح الإنسان الكامل رَحَى الْحَقِّ ومحوره فإن ذلك يعني أن جميع أوصافه مستندة ومنظمة على أساس محور الحق، وبالتالي سيكون غضبه ورضاه دائرتين مدار الحق كذلك، وهذا بدوره يُمثل علامة واضحة وكاملة من علامات العصمة.

ورغم أن مثلية أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء ﷺ في بيان المعارف الإلهية تمثل لدى عباد الله المخلصين مقامات لا يستطيع غيرهم الوصول إليها أو بلوغها، تماماً مثل صيانتهم من وساوس الشيطان وإغراءاته: ﴿وَلَا تُغْوِبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٥٠) وأمنهم من خزي الإحضار والإستدعاء للحساب: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٥١) وحصولهم على الأجر الجزيل إزاء ما كانوا يعملون: ﴿وَمَا تُحْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٥٢) إلا أنه يمكن الإشارة إلى بعض مزايا المخلصين الإستثنائية كحرمة وصف الله سبحانه إلا للمخلصين أنفسهم: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٥٣).

وهكذا فإن آل البيت ﷺ غير مقيدين بأيِّ تعلقٍ أو تعيّنٍ، وما قرب النوافل إلا من ضمن مقاماتهم الأولى، وهم وحدهم الذين يحق لهم وصف

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآملية

الله سبحانه وتعالى لأنّ الموصوف يصف نفسه ويمدحها بلسان الواصف قائلاً: «أنتَ كما أثبتت على نفسك». ولما كان جميعهم قد تناول الشراب الطهور من يد ساقٍ واحدٍ، فإنّ كوثر المعارف الإلهية قد جرى في روافد سيرتهم العلميّة والعملية ليصبّ في النهاية في بحر الأحديّة المترامي الأطراف (رَكِبَتْ الْبَحْرَ وَانْكَسَرَتِ السَّفِينَةُ).

وأما الآخرون من ذوي العقول المحدودة والأذهان القاصرة فهم عاجزون عن تعريف ما هو غير محدودٍ.

وأما أولئك الذين بلغوا بالفعل المقام الشامخ للفناء صفةً وذاتاً فهم وحدهم المأذونون في وصف الله سبحانه وتعالى، ولما كان الموصوف مُصاناً من كلّ إزدواجية وإثنيّة فإنّ أوصاف أولئك كذلك ليس فيها ما يتعارض مع أوصافه عزّ وجلّ، ولهذا نرى أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام تقوم ببيان وتفسير المعارف الإلهية تماماً كما يفعل عدلها وزوجها الإمام علي عليه السلام، ومن ذلك ما يلي:

١. نِعَمَ اللهُ سُبْحَانَهُ الَّتِي لَا تُحْصَى وَلَا تُعَدُّ: «الحمدُ لله على ما أنعم... جَمَّ عَنِ الْإِحْصَاءِ عَدَدُهَا، وَنَأَى عَنِ الْجَزْأِ أَمَدُهَا، وَتَفَاوَتْ عَنِ الْإِدْرَاكِ أَبْدَها...»^(٥٤)، فهذا الشكل من الحمد الذي صاغته عليها السلام يشبه إلى حدّ كبير ما قاله علي عليه السلام في خطبته الأولى في (نهج البلاغة): «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مَدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ وَلَا يُحْصِي نِعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ»^(٥٥) ومن الواضح أنّ جذور كلّ منهما تمتدّ إلى القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٥٦).

٢. معرفة الله لا تكون بالحواسّ، وتعريفه لا يكون بالإشارة، بل القلوب

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِزْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

به متصلةً والعقول بنوره مستنيرة: «... وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الْإِخْلَاصَ تَأْوِيلَهَا، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَهَا، وَأَنَارَ فِي الْفِكْرَةِ مَعْقُولَهَا، الْمُتَمَتِّعُ مِنَ الْأَبْصَارِ رُؤْيَاهُ، وَمِنَ الْأَلْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الْأَوْهَامِ كَيْفِيَّتُهُ»^(٥٧) وهذا الوصف الرائع يشبه التعريف المشهور لأمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ...»^(٥٨)

٣. إن خلق العالم لم يكن من مادةٍ أزلية ولا عن مثالٍ سابقٍ ولا لهدفٍ خارجٍ عن ذات الخالق إذ إن لكل واحدٍ من تلك الأمور محذوراً عقلياً: «ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءَ لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنْشَأَهَا بِلَا احْتِدَاءٍ أَمْثَلَةٍ امْتَثَلَهَا، كَوْنَهَا بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَهَا بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى تَكْوِينِهَا، وَلَا فَائِدَةٍ لَهُ فِي تَصْوِيرِهَا»^(٥٩) وهذا التحليل العقلي لنظام الخلق الوارد في كلام سيِّدة نساء العالمين عليها السلام يتطابق مع ما قاله الإمام علي عليه السلام: «لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ وَلَا مِنْ شَيْءٍ خَلَقَ مَا كَانَ... ابْتَدَعَ مَا خَلَقَ بِلَا مِثَالٍ سَبَقَ وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَكُلُّ صَانِعٍ شَيْءٍ فَمِنْ شَيْءٍ صَنَعَ وَاللَّهُ لَا مِنْ شَيْءٍ صَنَعَ... بِذَلِكَ أَصِفُ رَبِّي»^(٦٠)، وفي هذا التعبير المستوحى من القرآن الكريم تم بيان القِدَمِ الذاتِيِّ للذات الإلهية المقدسة، وأن تلك القِدَمية مسلوبةٌ من أي شيءٍ آخر، بالإضافة إلى أن كل المخلوقات غير الله سبحانه إنما هي حادثَةٌ، وبهذا الكلام أيضاً تم دحض كل الإحتمالات حول أزلية المادة وإبطال شبهة النقيضين وردّها، فضلاً عن إشارته إلى العديد من النقاط والمسائل المهمة الأخرى التي طرحت في تلك الخطبة بشكلٍ مسهبٍ ومفصّلٍ، فمن خلال القول بأن الله سبحانه لم يقتبس وجوده من شيءٍ «لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ» بين أمير المؤمنين عليه السلام أزليته تعالى الذاتية،

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الأمليّة

وعبر توضيحه عليه السلام أنّه تعالى لم يخلق العالم من شيء سابق، فنّد القول القائل بالقدم الذاتي للموجود «وَلَا مِنْ شَيْءٍ خَلَقَ مَا كَانَ»، وبتأكيد على أنّ خلق العالم كان «لَا مِنْ شَيْءٍ» أزال شبهة إرتفاع النقيضين التي تقول أنّه إذا كان الله تعالى قد خلق العالم «مِنْ شَيْءٍ» لزم الإعتراف بأزليّة المادّة التي تشكّل المبدأ القابلي لعالم الإمكان، وإذا كان العالم مخلوقاً «لَا مِنْ شَيْءٍ» لزم أن يكون العدم «لَا شَيْءٍ» هو المبدأ القابلي وبمنزلة المادّة، وإذا كان الخلق «لَا مِنْ شَيْءٍ» وليس «مِنْ شَيْءٍ» لزم إرتفاع النقيضين.

والجواب على هذه الشبهة هو أنّ «مِنْ شَيْءٍ» ليس نقيضاً لـ «مِنْ شَيْءٍ» لكي ينتج عن إرتفاعها محذور ما بل إنّ نقيض «مِنْ شَيْءٍ» هو «لَا مِنْ شَيْءٍ» وليس «مِنْ شَيْءٍ» وبذلك يكون أحد النقيضين صادقاً والآخر كاذباً؛ أي: إنّ (الخلق من شيء) هو كاذبٌ بينما (الخلق لا من شيء) هو الصادق، وهذا يعني أنّ أصل العالم (مُبدعٌ) وليس مسبوقاً بأيّ مبدأ قابليّ، وأنّه يستند إلى الفاعل فقط.

وهذه المسألة الرائعة التي تضمّنها كلام هذين العدلين المعصومين، أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء عليهما السلام وغيرها من المسائل العقلية الأخرى الدقيقة هي التي دفعت المرحوم ثقة الإسلام الكلينيّ إلى القول: «... وهذه الخطبة من مشهورات خطبه عليه السلام... وهي كافية لمن طلب علم التوحيد إذا تدبّر بها وفهم ما فيها؛ فلو اجتمع ألسنة الجنّ والإنس ليس فيها لسان نبيّ على أن يبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى به بأبي وأمي ما قدروا عليه ولولا إبانته عليه السلام ما علم الناس كيف يسلكون سبيل التوحيد؛ ألا ترون إلى قوله: (لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ وَلَا مِنْ شَيْءٍ خَلَقَ مَا كَانَ)...»^(٦١).

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

وفي معرض تقديره لمؤلف الكتاب على دقة نظره وسعة تأمله، علّق المرحوم المحقق الداماد قدس سره في شرحه لكتاب (أصول الكافي) قائلاً: «... فقد بانّ وظهر أنّ شيخنا الأفخم أبا جعفر الكليني قد قوّم الفحص ودقّق وسلك الصراط السويّ في تفسير كلامه عليه السلام حشره الله تعالى في عصابة أئمة الطاهرين عليهم السلام...» (٦٢).

وتعظيماً لمكانة الشيخ الكليني (قدّس الله نفسه الزكيّة) وسموّ منزلته قال المرحوم صدر الدين الشيرازي (صدر المتأهّلين) في توضيح كلام المؤلف: «... وليس فيها لسان نبيّ (إلخ) أيّ من أعظم الأنبياء كنوح وإبراهيم وإدريس وشيث وداود وموسي وعيسى عليهم السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين» ويعني أنّ الكليني أراد من كلامه أنّه لو اجتمعت الجنّ والإنس ولم يكن فيهم كبار الأنبياء أو كانوا فيهم لما استطاعوا بيان التوحيد بالشكل الذي بيّنه أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ وصف بشكلٍ إجماليّ وتفصيليّ المقام السامي لذلك الإنسان الكامل - أمير المؤمنين عليه السلام - ناسباً لسلسلة العلوم والعلماء إلى ساحة قدسه الطاهرة.

٤. لا شكّ في أنّ الإيمان بضرورة المعاد له تأثيرٌ كبيرٌ في تهذيب النفوس، فترى البعض يأتمرون بالأوامر الإلهية ويتعدون عن عصيانه شوقاً إلى الجنة فيما يفعل قسمٌ آخر ذلك خوفاً من النار: «... ثُمَّ جَعَلَ الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَضَعَ الْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، زِيَادَةً لِعِبَادِهِ عَنْ نَقْمَتِهِ وَحَيَاشَةَ مِنْهُ إِلَى جَنَّتِهِ» (٦٣) وهذا البيان الواضح والرائع للطاهرة البتول عليها السلام حول ضرورة القيامة يشبه ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في حتمية المعاد ولكن بعباراتٍ مختلفةٍ وجملٍ متنوّعةٍ مُبيّناً الدرجات المتعددة لذلك بقوله: «فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً وَكَفَى بِالنَّارِ

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآمل

عِقَاباً وَوَبَالاً وَكَفَى بِاللّهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً وَكَفَى بِالكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً» (٦٤).

٥. تقول الزهراء عليها السلام حول ضرورة الوحي والرسالة واختيار النبي صلى الله عليه وآله لختم النبوة وإتمام الأمر الإلهي وإمضاء حكم الله تعالى: «... وَأَشْهَدُ أَنَّ أَبِي مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتَارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أُرْسَلَ... وَاصْطَفَاهُ قَبْلَ أَنْ ابْتَعَثَهُ، إِذِ الْخَلَائِقُ بِالْغَيْبِ مَكْنُونَةٌ... ابْتَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى إِتْمَاماً لِأَمْرِهِ، وَعَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ، وَإِنْفَاداً لِمَقَادِيرِ حَتْمِهِ، فَرَأَى الْأُمَّمَ فِرْقَانِي أَدْيَانَهَا، عَكْفَاءَ عَلَى نِيرَانِهَا، عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا، مُنْكَرَةً لِمَعْرِفَاتِهَا، فَأَنَارَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ظُلْمَهَا» (٦٥). كان الناس متفرقين شيعاً على أديانٍ متعدّدة ومذاهبٍ شتى، وكانوا يسجدون لغير الله سبحانه سواء في معابد النار أو في أماكن الذلّ والعبودية، مُنكرين حقيقة وجود الله وربوبيته التي أودعها فطرتهم، فأنازل الله سبحانه العالم بأبيها محمد صلى الله عليه وآله سيّد الكائنات وبه وآل بيته عليهم السلام أزال عنه الظلمات.

إنّ هذا الأسلوب الرائع والنثر البديع حول ضرورة الرسالة المحمّديّة موازٍ للكلام الذي قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام حول أهميّة الوحي وضرورة النبوة: «... إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ... وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلٌّ مُتَفَرِّقَةٌ وَأَهْوَاءٌ مُتَشَرِّعَةٌ وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ بَيْنَ مُشْبِهِ اللهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ» (٦٦).

وحول القرآن الكريم وهدايته كذلك نرى وجود الكثير من الشبه بين عبارات ذينك العدلين المعصومين الشريفين.

٦. أمّا ما يتعلّق بأسرار الفرائض والأحكام الإلهيّة الجمّة، تقول الطاهرة

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

البتول عليها السلام: «فَجَعَلَ اللَّهُ الْإِيْمَانَ تَطْهِيْرًا لَكُمْ مِنَ الشَّرْكِ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيْهًا لَكُمْ عَنِ الْكِبْرِ، وَالزَّكَاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ، وَنَمَاءً فِي الرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ تَثْبِيْتًا لِلْإِحْلَاصِ، وَالْحَجَّ تَشْيِيْدًا لِلدِّيْنِ، وَالْعَدْلَ تَنْسِيْقًا لِلْقُلُوْبِ، وَطَاعَتَنَا نِظَامًا لِلْمِلْمَةِ، وَإِمَامَتَنَا أَمَانًا مِنَ الْفُرْقَةِ، وَالْجِهَادَ عِزًّا لِلْإِسْلَامِ، وَالصَّبْرَ مَعُوْنَةً عَلَيَّ اسْتِيْجَابِ الْأَجْرِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَامَّةِ، وَبِرَّ الْوَالِدِيْنَ وَقَايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الْأَرْحَامِ مَنْهَةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصَاصَ حَقْنًا لِلدِّمَاءِ، وَالْوَفَاءَ بِالنَّذْرِ تَعْرِِيْضًا لِلْمَغْفِرَةِ... وَحَرَّمَ اللَّهُ الشَّرْكَ إِخْلَاصًا لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ...»^(٦٧)، وهذه الأسرار العبادية الرائعة نجدها في الكثير من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وحكمه كالخطبة التي أشار فيها إلى أركان الدين^(٦٨) والكلام الذي صرح به عليه السلام حول أصل إمامة آل البيت عليهم السلام^(٦٩): «... وَهُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ وَوَلَائِحُ الْإِعْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ وَانْتَزَحَ الْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنَبَتِهِ»^(٧٠).

٧. وحول محاربة الظلم ومقارعة الباطل وإسترداد حق المظلوم، نلاحظ

الكثير من الإشارات في كلام هذين العدلين المطهرين المعصومين عليهم السلام إلى وقاحة المشركين وهو ما نراه في جُلِّ خطبتها عليها السلام والكثير من خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله. وتشير هذه الخطبة مثلاً إلى أنه عند غياب النظام الذي يحمل مسؤولية الدفاع عن حق المحرومين فإنَّ حكم ذلك النظام هو حكم جاهليٍّ وإن كان لا بساً لرداء الإسلام: «... وَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَلَّا إِزْتَنَا، أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ؟! بَلَى، تَجَلَّى لَكُمْ كَالشَّمْسِ الصَّاحِيَةِ أَنِّي ابْنَتُهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ...»^(٧١) وفي ذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَوْ أَصْبِرَ عَلَيَّ طَخِيَّةَ عَمِيَاءَ... أَرَى تُرَاثِي نَهْبًا»^(٧٢).

إنَّ المسلم الحرَّ الأبِيَّ ومن خلال سيره على خطى آل بيت العزَّة

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآمل

والكرامة عليه السلام يأبى أن يخضع للتقاليد البالية والعادات الظالمة التي سنّها الرّاع وإبتدعها الأشرار لأنّ الظلم لا يقبل به سوى الإنسان الذليل والعاجز وذلك لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ»^(٧٣) فهو لا يرى السيرة الخالدة للأحرار في محاربتهم للظلم إلّا في ظلّ إمامة وقيادة آل بيت الحرّية والشجاعة عليه السلام: «وَطَاعَتَنَا نِظَامًا لِلْمِلَّةِ، وَإِمَامَتَنَا أَمَانًا مِنَ الْفُرْقِ»^(٧٤)؛ «... حَتَّى إِذَا دَارَتْ بِنَا رَحِي الْإِسْلَامِ...»^(٧٥)؛ «... وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى...»^(٧٦).

٨. بالإضافة إلى الشّبه الكبير الموجود بين سيرتي هذين المعصومين عليه السلام العلميّة فإنّه لا فرق كذلك بين سيرتيهما العمليّة، وقد تناول المصنّفون والمؤلّفون على حدّ سواء هذا الموضوع في العديد من مجلّداتهم الضخمة التي بيّنت جميع تفاصيل الزّهد والقناعة والصبر والإيثار والتوكّل والتسليم وتفويضهما الكامل، وسنكتفي في هذا المقال الموجز بذكر بعض الأدعية المشتركة لدى هاتين الجوهرتين السماويتين.

على الرغم من أنّ الدّعاء يُمثّل درع المؤمن وسلاحه وعمود دينه ونور السموات والأرض^(٧٧)، وشفاء لكلّ داء^(٧٨)، إلى جانب كونه أرضاً خصبةً وقاعدةً صلبةً للإستجابة: «الدُّعَاءُ كَهْفُ الْإِجَابَةِ كَمَا أَنَّ السَّحَابَ كَهْفُ الْمَطْرِ»^(٧٩)، إلّا أنّ أفضل الأدعية قاطبةً ما خرج من قلب طاهر وفؤادٍ خاشعٍ ونيةٍ خالصة^(٨٠) وكانت غاية مطلوبه الإنقطاع إلى الكمال البحت: «إِلَهِي هَبْ لِي الْإِنْقِطَاعَ إِلَيْكَ وَأَنْزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بَضِيَاءَ نَظَرِهَا إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعِظَمَةِ وَتَصِيرَ أَرْوَاحَنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ»^(٨١).

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

ولكي يكون الإنسان مستحقاً لنداء الحقّ تعالى ولطفه ومسروراً بذلك النداء وهذا اللطف يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «... وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ نَادَيْتَهُ فَأَجَابَكَ، وَلَا حَظَّتْهُ فَصَعِقَ لِجَلَالِكَ»^(٨٢) فهو لا يعرف غيره ولا يتجنب إلا ما سواه: «فَأَكُونَ لَكَ عَارِفًا، وَعَنْ سِوَاكَ مُنْحَرِفًا»^(٨٣)، فلا سبيل أمامه إلا الفناء من الأنانية، بل والفناء من الغيرية كذلك، وهذا هو السبيل إلى رؤية الله سبحانه: «... عَظَّمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ»^(٨٤)، فإذا رأى الجمال الكامل دُهِشَ وَصَعِقَ: «فَصَعِقَ هَمَّامٌ صَعَقَةً كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا»^(٨٥). وأمّا علامة القرب الكامل من الله عزّ وجلّ فهو إحساس العبد بلذّة العبودية الخالصة في حضرته الطاهرة؛ ولهذا فعندما سُئِلَ الإمام علي بن محمّد الهادي عليه السلام عن كيفية معرفته بوفاة الإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام أجاب: «لأنّه تَدَاخَلْتَنِي ذِلَّةٌ وَاسْتِكَانَةٌ لِلَّهِ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهَا»^(٨٦) ومع هذا الشعور والإحساس بلذّة العبودية الخالصة ألهمَ مقام الإمامة من قبل الله تعالى.

وعندما سُئِلَ الإمام الرضا عليه السلام: «مَتَى يَعْلَمُ أَنَّهُ إِمَامٌ حِينَ يَبْلُغُهُ أَنْ صَاحِبُهُ قَدْ مَضَى أَوْ حِينَ يَمْضِي مِثْلَ أَبِي الْحَسَنِ قُبُضَ بِنَعْدَادٍ وَأَنْتَ هَاهُنَا؟ قَالَ: يَعْلَمُ ذَلِكَ حِينَ يَمْضِي صَاحِبُهُ. قُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: يُلْهِمُهُ اللَّهُ»^(٨٧).

إنّ المسائل التي ذكرناها حول موضوع الدّعاء وشروط الإستجابة وما إلى ذلك يمكننا ملاحظتها في الكثير من الأدعية المرويّة عن العدلين المعصومين عليهم السلام في العبادة والدّعاء، ولما كان محور الدّعاء ومركز التضرّع هو الشعور بالتواضع والذلّ في حضرة البارئ عزّ وجلّ وهي نعمّة كالنعم الإلهية الأخرى كائنة منذ بدء الوجود: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(٨٨) فإنّ الصّديقة الكبرى عليها السلام توازي بعلمها عليها السلام في هذه الفضيلة أيضاً ولهذا فهي

◆ الشيخ آية الله عبداللّه الجواد في الآمل

تقول: «اللّهُمَّ ذَلِّ نَفْسِي وَعَظِّمْ شَأْنَكَ فِي نَفْسِي وَأَلْهَمْنِي طَاعَتَكَ وَالْعَمَلَ بِمَا يُرْضِيكَ وَالتَّجَنُّبَ لِمَا يُسْخِطُكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»^(٨٩)، والمعروف أنّ حجاب الأنانية والغرور لا يزول إلا بالإحساس بالذلّ في مقابل الواحد القهار وعندئذ يتجلّى جمال عظمته، وعندها فقط سيشعر هذا الإنسان المتواضع بعلو شأن الله سبحانه في أعماقه وعروقه، فتراه يمثل لأوامره ويسارع إلى الانصياع لتعاليمه ويفعل كلّ ما يرضي ربّه ويتجنّب كلّ ما يسخطه ويغضبه.

وأخيراً، نقل للتبرّك ومسك الختام نتفاً من دعاء الصديقه الكبرى عليها السلام يشبه تضرّع عدلها المعصوم الإمام علي عليه السلام^(٩٠) والذي كانت تذكره بعد صلاة الظهر:

«سُبْحَانَ ذِي الْعِزِّ الشَّامِخِ الْمُتَيْفِ... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ بَلَغْتُ مَا بَلَغْتُ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ وَالْعَمَلِ لَهُ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْنِي جَاحِداً لشيءٍ مِنْ كِتَابِهِ وَلَا مُتَحَيِّراً فِي شيءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِدِينِهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي أَعْبُدُ شَيْئاً غَيْرَهُ»، وتفيد صيغة النكرة في سياق النفي العمومية، والمقصود بذلك أنه ما من شيء هو معبودها سوى الحقّ تعالى، فإنّ ثمرة التحليل العبادي لتلك الصديقه عليها السلام تتمثل في نفي الخوف من النار أو الشوق إلى الجنّة، وأنّ معبودها الوحيد هو الحقّ سبحانه وتعالى: «... فَأَبْعَثْ مَعِيَ يَا رَبُّ نُوراً مِنْ رَحْمَتِكَ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيَّ وَعَنْ يَمِينِي تُؤْمِنُنِي بِهِ وَتَرْبُطُ بِهِ عَلَيَّ قَلْبِي... وَتَحْلِيْنِي الدَّرَجَةَ الْعُلْيَا مِنْ جَنَّتِكَ وَتَرْزُقْنِي بِهِ مُرَافَقَةَ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ دَرَجَةً وَأَبْلَغَهَا فَضِيلَةً وَأَبْرَهَا عَطِيَّةً وَأَرْفَعَهَا نَفْسَةً مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً... وَاخْتِمْ لِي بِالسَّعَادَةِ... بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»^(٩١).

عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِدْلَانِ فِي مِيزَانِ اللَّهِ

والآن وبعد أن صوّرنا جانباً من الكمال الوجودي لسيدة نساء العالمين عليها السلام من خلال تحليل الكتاب وسنة المعصومين عليهم السلام، يمكننا أن نخمّن سبب تسميتها باسم (فاطمة) حيث قال الإمام الباقر عليه السلام: «لَمَّا وُلِدَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مَلِكٍ فَأَنْطَقَ بِهِ لِسَانَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَسَمَّاهَا فَاطِمَةَ. ثُمَّ قَالَ: إِنِّي فَطَمْتُكَ بِالْعِلْمِ... ثُمَّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: وَاللَّهِ لَقَدْ فَطَمَهَا اللَّهُ بِالْعِلْمِ»،^(٩٢) أي فطمها من الجهل والغفلة حيث بدأت رضاعتها كذلك بالعلم والمعرفة.

وَالسَّلَامُ عَلَيْهَا يَوْمَ وُلِدَتْ وَيَوْمَ اسْتُشْهِدَتْ وَيَوْمَ تُبْعَثُ حَيًّا؛ اَللّٰهُمَّ اِنَّ اَهْلَ بَيْتِ الْوَحْيِ عليهم السلام كَمَا نَحَبُّ فَاجْعَلْنَا كَمَا يُحِبُّونَ.

الهوامش

- (١) أصول الكافي، ج ١، كتاب الحجّة، باب (مولد الزهراء «عليها السلام»)، ص (٤٦١).
- (٢) سورة الشورى، الآية (١١).
- (٣) سورة الإخلاص، الآية (٤).
- (٤) سورة النّجم، الآيات من (٨) إلى (١١).
- (٥) سورة الصافات، الآية (١٦٤).
- (٦) نهج البلاغة، الخطبة (١)، ص (٢٢).
- (٧) المصدر السابق.
- (٨) مصباح الأنس، ص (١٣-١٤).
- (٩) تمهيد القواعد، ص (١٨٨).
- (١٠) تفسير الميزان، ج ١، ص (١٣).
- (١١) الكافي، كتاب الحجّة، باب جامع في فضل الإمام (الإمام الرّضا «عليه السلام»)، ص (٢٠١).
- (١٢) نهج البلاغة، الحكمة رقم (٨١).
- (١٣) سوره المؤمنون، الآية (١٠١).
- (١٤) سوره مريم، الآيات (٢)، (١٦)، (٤١)، (٥١)، (٥٤) و (٥٦).
- (١٥) سورة الأحزاب، الآية (٣٣).
- (١٦) سورة يس، الآية (٨٢).
- (١٧) سورة المائدة، الآية (٦).
- (١٨) سورة التوبة، الآية (١٠٣).
- (١٩) سورة المائدة، الآية (٤١).



- (٢٠) سورة الأنفال، الآية (١١).
(٢١) سورة يونس، الآية (١٠٠).
(٢٢) سورة الأنعام، الآية (١٢٥).
(٢٣) سورة يوسف، الآية (٢٤).
(٢٤) التفسير الكبير، ج ٢٥، ص (٢١٠)، ذيل آية التطهير.
(٢٥) سورة النمل، الآية (٨٧).
(٢٦) سورة الأنبياء، الآيات من (١٠١) إلى (١٠٣).
(٢٧) نهج البلاغة، الخطبة (١٨٣).
(٢٨) سورة الواقعة، الآيات من (٧٧) إلى (٧٩).
(٢٩) الكافي، ج ٢، باب (فضل حامل القرآن)، ص (٦٠٦).
(٣٠) سورة الزخرف، الآيتين (٣) و (٤).
(٣١) نهاية الفصل الرابع من كتاب (مفتاح غيب الجمع والوجود).
(٣٢) سورة الإنسان، الآية (٢١).
(٣٣) مجمع البيان، ج ١٠، ص (٦٢٣).
(٣٤) التفسير الكبير، ج ٣٠، ص (٢٥٤).
(٣٥) تفسير أبي السعود، ج ٥، ص (٨٠٤).
(٣٦) سورة آل عمران، الآية (٦١).
(٣٧) سورة نوح، الآية (٢٦).
(٣٨) سورة آل عمران، الآية (٤٩).
(٣٩) سورة الإسراء، الآية (٣٨).
(٤٠) سورة النساء، الآية (٧٩).
(٤١) سورة آل عمران، الآية (٦١).
(٤٢) سورة سبأ، الآية (٢٤).

- (٤٣) سورة آل عمران، الآيتين (٦٠) و (٦١).
(٤٤) تفسير الميزان، ج ٣، ص (٢٥٩ - ٢٦١).
(٤٥) نهج البلاغة، الخطبة (١٩٢).
(٤٦) سورة الشعراء، الآيتين (١٩٣) و (١٩٤).
(٤٧) سورة النجم، الآية (١١).
(٤٨) أعيان الشيعة، ج ١، ص (٣٠٧)؛ الخصائص، النسائي، ص (٣٧).
(٤٩) أمثال القرآن، ج ٤، ص (١٠).
(٥٠) سورة الحجر، الآيتين (٣٩) و (٤٠).
(٥١) سورة الصافات، الآيتين (١٢٧) و (١٢٨).
(٥٢) سورة الصافات، الآيتين (٣٩) و (٤٠).
(٥٣) سورة الصافات، الآيتين (١٥٩) و (١٦٠).
(٥٤) كتاب الاحتجاج، الطبرسي، ج ١، ص (٢٥٥).
(٥٥) نهج البلاغة، الخطبة (١).
(٥٦) سورة النحل، الآية (١٨).
(٥٧) الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص (٢٥٥).
(٥٨) نهج البلاغة، الخطبة (١٧٩).
(٥٩) الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص (٢٥٥).
(٦٠) أصول الكافي، باب (جوامع التوحيد)، الحديث (١)، ص (١٣٤-١٣٦).
(٦١) المصدر السابق، ص (١٣٦).
(٦٢) شرح أصول الكافي، المحقق الداماد، ص (٣٣٠).
(٦٣) الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص (٢٥٦).
(٦٤) نهج البلاغة، الخطبة (٨٣).
(٦٥) الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص (٢٥٦).

- (٦٦) نهج البلاغة، الخطبة (١).
- (٦٧) الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص (٢٥٨).
- (٦٨) أنظر: نهج البلاغة، الخطبة (١١٠).
- (٦٩) راجع: نهج البلاغة، الخطب (٢) و (٣) و (٤) و (٨٧) و (٩٣) وغيرها.
- (٧٠) نهج البلاغة، الخطبة (٢٣٩).
- (٧١) الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص (٢٦٧).
- (٧٢) نهج البلاغة، الخطبة (٣).
- (٧٣) نهج البلاغة، الخطبة (٢٩).
- (٧٤) الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص (٢٥٨).
- (٧٥) المصدر السابق، ص (٢٧١).
- (٧٦) نهج البلاغة، الخطبة (٣).
- (٧٧) أصول الكافي، ج ٢، باب (أنّ الدعاء سلاح المؤمن)، ص (٤٦٨).
- (٧٨) المصدر السابق، باب (أنّ الدعاء شفاء من كلّ داء)، ص (٤٧٠).
- (٧٩) المصدر السابق، باب (أنّ من دعا أستجيب له)، ص (٤٧١).
- (٨٠) أصول الكافي، ج ٢، باب (أنّ الدعاء سلاح المؤمن)، ص (٤٦٨).
- (٨١) مفاتيح الجنان، المناجات الشعبانية.
- (٨٢) المصدر السابق.
- (٨٣) المصدر السابق.
- (٨٤) نهج البلاغة، الخطبة (١٩٣).
- (٨٥) المصدر السابق.
- (٨٦) أصول الكافي، ج ١، باب (أنّ الإمام متى يعلم أنّ لأمر قد صار إليه)، ص (٣٨١).
- (٨٧) المصدر السابق.
- (٨٨) سورة النحل، الآية (٥٣).

- (٨٩) أعيان الشيعة، ج ١، ص (٣٢٣)، نقلاً عن (مهج الدعوات).
- (٩٠) أنظر: بحار الأنوار، ج ٨٣، ص (٦٤)، نقلاً عن (فلاح السائل) حول دعاء أمير المؤمنين عليه السلام.
- (٩١) بحار الأنوار، ج ٨٣، ص (٩٨).
- (٩٢) أصول الكافي، ج ١، ص (٤٦٠)، باب (مولد الزهراء فاطمة «عليها السلام»).